منطقة الريف المغربي
من خلال كتاب "المغرب الأقصى" لأمين الريحاني

The Moroccan Rural Region
through the book
Al-Maghrib Al-Aqsa by Amin Al-Rayhani

اليحياوي الادريسي عزيز.

ـ جامعة سيدي محمد بن عبد الله؛ فاس؛ (المغرب).

ـ البريد الإلكتروني: *is.meknes@hotmail.fr*

تاريخ الإرسال: 2023/02/26؛ تاريخ القبول:2023/05/06؛ تاريخ النشر:2023/06/09.

الملخص:

يعد كتاب المغرب الأقصى لمؤلفه أمين الريحاني من أهم كتب الرحلات التي اهتمت بالمنطقة الشمالية للمغرب إبان الحماية الإسبانية، فهو كتاب دون فيه صاحبه بأسلوب سلس مرسل مشاهداته ومعايناته وانطباعاته الشخصية، وجمع فيه كذلك ما تناقلته الألسن. إن هذا الكتاب يشكل بحق وثيقة مهمة يجد فيها الدارسون بمختلف مشاربهم وتخصصاتهم خاصة المهتمين بحقل التاريخ مادة غنية دسمة، بما حوته من معلومات قيمة ومعطيات ثرية وتفاصيل مهمة، متعلقة بالمنطقة الشمالية للمغرب عموما، وبمنطقة الريف خصوصا، والتي اتخذناها موضوع ورقتنا البحثية هاته. وعليه، فإن دراسة هذا الكتاب مكننا من رصد خصوصيات منطقة الريف المغربي، وإبراز مميزاتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأقصى؛ منطقة الريف؛ أمين الريحاني؛ الرحلة.

Abstract:

The book Al-Maghrib Al-Aqsa, written by Amin Al-Rayhani, is one of the most important travel books that has focused on the northern region of Morocco during the Spanish protectorate. This book truly constitutes an important document in which scholars of all domains of life and disciplines, especially those interested in the field of history, will find rich and valuable material, including valuable information, rich data, and important details related to the northern region of Morocco in general and the Rif region in particular, which we have taken as the subject of our research paper. Accordingly, the study of this book has enabled us to monitor the specificity of the Moroccan countryside, and highlight its geographical, political, economic, social and cultural advantages.

Keywords: Al-Maghrib Al-Aqsa; countryside area; Amin Al-Rihani; the journey.

مقدمة:

تهدف الورقة البحثية هذه؛ إلى إبراز سمات ومميزات منطقة الريف من خلال كتب الرحلات، حيث استأثرت باهتمام الكثير من الرحالة والجغرافيين، الذين حرصوا على تسجيل تفاصيل رحلاتهم للمنطقة لأهداف وغايات مختلفة. ولعل ذلك مرتبط بخصوصياتها التاريخية والحضارية التي ساهمت في بلورتها مجموعة من العوامل، والمتمثلة في موقعها الاستراتيجي، وما شهدته من أحداث تاريخية مهمة عبر فتراتها المتلاحقة، كان لها الأثر الكبير على تركيبة بنيتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

إن الباعث وراء اختيارنا لهذه المصادر كموضوع لورقتنا، هو كونها تشكل رافدا مصدريا أساسيا للباحثين والمتخصصين في حقل الدراسات التاريخية، بحكم ما حوته من معلومات غنية وإيماءات قيمة همت جوانب مهمة من تاريخ المغرب؛ فهي «مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ» (كراتشوفسكي أغناطيوس، 1987: 19).

وغني عن البيان أن هذه الكتب تدخل في إطار الأدب الوصفي، إذ أنها لا تخرج عن البنية السردية المعتادة، فصاحبها يعمل على نقل مشاهداته وملاحظاته، ويسجل انطباعاته ومشاعره انطلاقا من تجربته الشخصية تجاه كل ما يصادفه في جولاته وتطوفاته؛ خاصة الأشياء غير المألوفة بالنسبة إليه، والتي في نظره تستحق التدوين. من هنا تأتي أهميتها البالغة، فهي تتميز بكونها مصدرا حيا، وبالتالي تشكل بالنسبة للمهتمين بالتاريخ مشتلا خصبا ومصدرا غنيا، يستقي منها الباحث إشارات ومعلومات تساعده على رصد عدد من القضايا، والانفتاح عليها من شأنه إغناء البحث حول العديد من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وفي هذا السياق، وقع اختيارنا على رحلة قيمة -في تقديرنا- هي رحلة اللبناني أمين الريحاني والموسومة بـ: "المغرب الأقصى" لاعتبارات عدة؛ فعلاوة على ما ذكرناه آنفا؛ تحوي الرحلة بين ثناياها معلومات غنية ومشاهد قيمة، دونها الريحاني بأسلوب سلس مرسل جذاب، تتعلق بالجوانب الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، من شأنها أن تسهم في الكشف عن خصوصيات منطقة الريف المغربي والتعريف بمميزاته وخصائصه، ناهيك عن الفترة الزمنية التي تؤرخ لها الرحلة وهي فترة دقيقة وحساسة، شهد فيها المغرب أحداثا متسارعة

خاصة في المنطقة الشمالية الخاضعة للاحتلال الإسباني، أرخت بظلالها على المنطقة.

ومن هذا المنطلق؛ فإن الإشكالية التي نود معالجتها في هذه الورقة البحثية تتمثل في محاولة إبراز القيمة العلمية التاريخية للمعلومات التي سجلها الريحاني في كتابه المغرب الأقصى عن منطقة الريف. ونعتقد أن مقاربة هذه الإشكالية يمر عبر الإجابة عن بعض التساؤلات، والتي يمكن إيجازها فيما يلي: ما هي الصورة التي رسمها الريحاني عن منطقه الريف؟ وما هي أبرز السمات والخصائص التي رصدها الريحاني في رحلته؟ وإلى أي حد ساهمت الرحلة في تسليط الضوء عن خصائص المنطقة والتعريف بمميزاتها؟

إن محاولة الإجابة على هذه التساؤلات، فرض علينا اتباع المنهج الوصفي السردي طبقا لما ورد من معطيات التي ساقها الريحاني في كتابه، وهو منهج اعتمدنا عليه بشكل كبير بالنظر لطبيعة دراستنا. فضلا عن المنهج التاريخي التحليلي من خلال وضع المعلومات الواردة في إطارها التاريخي.

وقبل استعراضنا لمضامين رحلة الريحاني حول منطقة الريف، نرى من المفيد تقديم نبذة تعريفية عن صاحب الرحلة وسياق رحلته.

1- التعريف بالرحالة:

هو أمين فارس أنطوان يوسف بن المطران باسيل الريحاني(انظر الملحق رقم: 1)، أديب وروائي ورحالة ورسام ومؤرخ وفيلسوف، ولد في قرية الفريكة اللبنانية يوم 24 نونبر 1876م (موسى علي، 1961: 13)، نشأ في وسط أسري يقدس العلم، تعلم مبادئ اللغتين العربية والفرنسية في مدرسة صغيرة. هاجر في سن مبكرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية

ولم يكن عمره يتجاوز حينئذ عشر سنوات(الريحاني أمين، 2018: 7)، الأمر الذي أتاح له فرصة تحصيل العلوم وتعميق معارفه، من خلال مطالعة مؤلفات كبار الشعراء خاصة الإنجليز، ساهمت في تكوين شخصيته وصقل موهبته، إلى أن أصبح كاتبا متمرسا وأديبا لامعا، حيث كان يمتلك قدرة كبيرة على الكتابة بأسلوب سلس وجذاب، بدليل تكريمه من طرف نادي الثريا الأمريكي بعد نشره لترجمة كتاب "الرباعيات" لأبي العلاء المعري إلى اللغة الانجليزية(الرافعي توفيق، 2012: 14)، وفي سنة 1904م أصدر أول مؤلفاته ووسمه بـ"الريحانيات" (الرافعي توفيق، 2012: 15)، فشاع أمره وذاع صيته، حتى صار من الشخصيات التي يشار إليها بالبنان. وطمعا في الاستزادة وتوسيع مداركه، شد الرحال إلى مجموعة من البلدان خاصة العربية، فاتصل بكثير من الملوك والأمراء.

وفي هذا الإطار؛ زار مصر خلال الفترة الممتدة من 2 إلى 20 فبراير سنة 1922م، استقبل بحفاوة كبيرة من طرف شخصيات مصرية بارزة، بدليل تنظيم ثمان حفلات على شرفه احتفاء به(انظر التعليق رقم: 1). ثم سافر بعدها إلى الحجاز؛ فالتقى بشريف مكة الحسين بن علي وسلطان حاشد، والإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن، وعبد العزيز آل سعود، وأمير الكويت أحمد الجابر الصباح، وشيخ البحرين أحمد بن عيسى، وفيصل الأول ملك العراق (فرحات نادي، 2018: 44)، كما زار المغرب سنة 1939م، وبالتحديد إلى المنطقة الشمالية التي كانت خاضعة للحماية الإسبانية، والتي تسمى بالمنطقة الخليفية(انظر التعليق رقم: 2)، ألف خلالها كتابا دون فيه مشاهداته، عنونه بـ: "المغرب الأقصى"، الذي لم ينشر إلا بعد وفاته، وهو موضوع ورقتنا البحثية.

خلف الريحاني إنتاجا غزيرا باللغتين العربية والإنجليزية، بلغ 38 كتابا ما بين المطبوع وغير المطبوع، علاوة على عشرات المقالات والمحاضرات والرسائل (الريحاني ألبرت، 1941: 5-6-7)، تناولت مواضيع متعددة وتطرقت إلى قضايا متنوعة، تدل على موسوعية الرجل وموهبته في التأليف، وأوضح دليل على ذلك ما حلاه به ألبرت الريحاني بقوله: «هو الكاتب الواقعي والنقاد الفني في التصوير والرقص والموسيقى، وهو الشاعر الناظم في اللغة الإنجليزية، وأبو الشعر المنثور في اللغة العربية، والفيلسوف في الاجتماع والإصلاح والسياسة» (الريحاني ألبرت، 1941: 11- 12). توفي أمين الريحاني يوم الجمعة 12 شتنبر 1940م (موسى علي، 1961: 34). وهنا نتساءل: ما هو السياق العام لزيارة أمين الريحاني إلى المغرب؟

2- التعريف بالرحلة:

كشف الريحاني في مقدمة كتابه أن فكرة سفره إلى المغرب كانت تراوده منذ سنوات طويلة، إلا أن ظروفا حالت دون تحقيقها، لكن ما لبث أن تيسرت له فرصة الزيارة، والتي ارتبطت بشكل كبير بما كان يجري في إسبانيا من أحداث كبيرة مرتبطة بالحرب الأهلية التي اندلعت سنة 1936م، فخلال السنة الثانية من تلك الحرب؛ ذكر أنه اقترح عليه أحد أصدقاءه زيارة المغرب، مستغلا العلاقة الودية التي جمعت الجنرال فرانكو ببعض المغاربة، حيث استعان بهم في الحرب الأهلية (الريحاني أمين، 2018: 13). وهكذا بدأ الريحاني في تهييء نفسه للزيارة، فربط اتصالا بالمقيم العام الكولونيل خوان بايبدر أتيانزا *Juan Beigbeder Atienza* في تطوان عاصمة المغرب الشمالي، والذي رحب

به. وتبعا لذلك نتساءل: لماذا رحبت إسبانيا بزيارة الريحاني إلى المنطقة الشمالية؟

نستطيع أن نعثر على جواب عن سؤالنا بالرجوع إلى ظروف ونتائج الحرب الأهلية التي شهدتها إسبانيا خلال الفترة الممتدة ما بين سنة 1936م وسنة 1939م، فبعد انتصار الجنرال فرانكو في الحرب على حكومة مدريد أو الجمهوريين، انخرط في سياسة جديدة استهدفت تحسين صورة إسبانيا الجديدة لدى المنتظم الدولي، من جملة إجراءاتها: إدخال بعض الإصلاحات على جهاز الحماية في المنطقة الخليفية بالمغرب، لعلها تساهم في إخراج نظلمه من عزلته «وتكون حجر الزاوية وعربونا على الصداقة المصطنعة مع العالم الإسلامي لخدمة المصالح الإسبانية» (برادة عبد الرحيم، 2007: 68). وجدت إسبانيا في الريحاني خير سند تعتمد عليه في تنفيذ سياستها، ويتضح ذلك جليا من خلال ما دونه الريحاني في مؤلفه، فبمجرد إلقاء نظرة سريعة على متن الرحلة، نكتشف مدى إعجابه واستحسانه الشديدين لسياسة إسبانيا في المنطقة(انظر التعليق رقم: 3).

وإجمالا؛ وبغض النظر عن المآخذ والملاحظات التي قد نسجلها حول موقف الريحاني من الحماية الإسبانية، لا يخالجنا شك في أن زيارته إلى المغرب تمت بغطاء وضوء أخضر من السلطات الإسبانية، التي وفرت له كل الإمكانيات من أجل تسهيل تنقلاته خلال الزيارة. وهكذا حل أمين الريحاني بالمغرب في شهر ماي سنة 1939م، واستغرقت رحلته شهرين، جال في المناطق الشمالية، تعرف فيها على جوانب من الحياة الثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية، وما جمع من معلومات ومعطيات عمل على تدوينها في كتاب سماه "المغرب الأقصى"، انتهى من

كتابته في 25 جمادى الثانية 1358ه/ 11 غشت 1939م (الريحاني أمين، 2018: 16).

جاء الكتاب الصادر عن مؤسسة هنداوي سي آي سي، في 441 صفحة، تضمن مقدمة وثلاثة أجزاء وملحق، وضم كل جزء فصولا، فالجزء الأول: 14 فصلا، والجزء الثاني: 15 فصلا، والجزء الثالث 6 فصول. حرص فيه الكاتب على عرض مضامين رحلته بأسلوب أدبي جذاب وسلس، تتداخل فيه خطابات متعددة من وصف وسرد وحكاية وخبر، ولم يخف الريحاني أن هدفه وغايته هي شد انتباه القارئ وإثارة انفعاله واستفزاز مشاعره، وفي خطوة لاستمالة القارئ وتحفيزه على قراءة نص الرحلة كاملا؛ استعمل أسلوب التشبيه، عندما شبه متن الرحلة بوجبة شهيرة في المغرب، إذ يقول «إن في المغرب طبخة يسمونها الحريرة، هي شبيهة بالحساء، ولكنها تشتمل على الكثير من أنواع اللحم والخضر والأبازير، فيرسب الأكبر في قعرها؛ فلا تحظى أنت به إلا بعد أن تصل في احتسائك إلى القعر» (الريحاني أمين، 2018: 16).

وبناء على ما ذكرنا؛ لا مشاحة في أن كتاب "المغرب الأقصى" يعتبر مصدرا مهما يلامس قضايا متعددة، فهو يحوي بين ثناياه مادة دسمة متعددة المستويات، أثارت اهتمامنا وفضولنا.

أ- مضامين الرحلة:

1- الإطار الطبيعي:

رسم الريحاني الإطار الجغرافي الذي شكل حدود منطقة الريف، فذكر أنه يحدها من الشمال البحر المتوسط من كبدانة شرقي مليلية، إلى مثيوة شرقي الجبهة، وجنوبا المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية وتمتد من كتامة إلى نهر ملوية، وغربا من مسطاسة قرب البحر إلى

كتامة على حدود المنطقة الجنوبية، وشرقا من نهر ملوية إلى كبدانة (الريحاني أمين، 2018: 350). ثم انتقل بعدها إلى الحديث عن خصائص المنطقة من الناحية الطبغرافية، فوصف جبالها عموما بأنها «أعلى وأوعر الأماكن الجبلية»(الريحاني أمين، 2018: 377)، إضافة إلى وجود شاطئ البحر «ساحله الضئيل، القائمة على جانبه الصخور الرملية كالجدران العالية، فتصاب رؤوسها في بعض الأماكن برشاش من الأمواج» (الريحاني أمين، 2018: 383). نستخلص إذن، أن الطبيعة الريفية تتميز بطغيان الطابع الجبلي على معظم المساحة، وبصعوبة مسالكها وطرقاتها، مع وجود أراضي شبه منبسطة قليلة وضيقة على الشريط الساحلي، الأمر الذي أرخى بظلاله على مجمل الأحداث والتطورات التي عرفتها المنطقة عبر تاريخها الطويل.

أما فيما يتعلق بالشبكة الهيدروغرافية بالريف، فيمكن التأكيد أن سلسلة جبال الريف شكلت مصدرا أساسيا استمدت منه أودية المنطقة مياهها، من أشهرها وادي النكور، الذي يعتبر من بقايا مدينة مندرسة ينبع من جبال غزناوة(الريحاني أمين، 2018: 349)، وصفه الريحاني ب «أرحب الأودية وأخصبها في هذه الناحية، كثير المياه والبساتين، كغوطة دمشق» (الريحاني أمين، 2018: 348). إضافة إلى وادي الغيس ينبع من جبل مزدوي بالقرب من تارغيست (الريحاني أمين، 2018: 349). لقد وفر الواديان موارد مائية مهمة ارتكزت عليها حياة ساكنة المنطقة، نظرا لما توفره من إمكانيات اقتصادية خاصة على المستوى الزراعي.

2- الجانب الاجتماعي:

❖ قبائل الريف:

إن أول ما يسترعي الانتباه هو طغيان النظام القبلي في منطقة الريف، ولسنا في حاجة إلى كبير عناء لإثبات هذه الخاصية، فقد شكلت القبائل الصنهاجية والغمارية والزناتية النواة الرئيسية لسكان الريف (الطيبي عبد الرحمان، 2008: 22)، وفي مرحلة لاحقة انضمت إليها بعض القبائل العربية. وهذا ما أكده الريحاني في رحلته، حيث أشار إلى أن العناصر الصنهاجية كثيرة «في هذه الناحية جذم منها وعدة بطون» (الريحاني أمين، 2018: 346)، من أشهرها وأكبرها قبيلة بني ورياغل مسقط رأس الزعيم عبد الكريم الخطابي.

ولم يفوت الريحاني الفرصة للإشارة إلى أن إسبانيا شيدت في بني ورياغل مقرا لمراقبها المحلي، كدليل رمزي على خضوع القبيلة التي تمنعت عنها ردحا من الزمن قبل ذلك، واتسمت بضراوة مقاومتها التي كبدت الإسبان خسائر فادحة، دفعت الريحاني إلى وصف ساكنيها ب «صناديد الريف» (الريحاني أمين، 2018: 347). كما ذكر مجموعة من القبائل الأخرى مثل: بوفراح، وبنو جميل، ويطفت، وبقوية (الريحاني أمين، 2018: 118)، تغزوت، وزرقت، وبنو خنوس، وبنو مزدوي (الريحاني أمين، 2018: 346- 347). أما فيما يتعلق بالقبائل العربية فذكر منهم بنو شيبت، وبنو أحمد، وبنو بشير، وبنو بونصار(الريحاني أمين، 2018: 346)، وقبيلة بني بويحيى التي تضم أولاد علي، وأولاد فطومة، وأولاد عبد الدايم، وأولاد موسى(الريحاني أمين، 2018: 360).

ولا يفوتنا في هذا الصدد الإشارة إلى قضية سجلها الريحاني، اختلف حولها الباحثون- ليس هذا موضع بحثها- فحواها أن قبائل الريف الأمازيغية كان أفرادها يحررون عقودهم ووثائقهم باللغة العربية، وقد بنى الريحاني حكمه هذا على الهدية التي قدمها له الدون إميليو

بلانكو إيزاغا *Don Emilio Blanco Izaga* المراقب العام لإيالة الريف، وهي عبارة عن كتب تحوي بين ثناياها قوانين الجماعات، وكل «ما يتعلق باصطلاحاتهم وتقاليدهم وأوضاعهم في البيع والكراء... والوثائق التي تتعلق ببيع المحصولات وحقوق المياه والري، وكلها مكتوبة باللغة العربية» (الريحاني أمين، 2018: 375).

ومجمل القول يمكن الإقرار بأن القبائل التي استوطنت منطقة الريف تميزت بالتعدد ما بين الأصل الأمازيغي والأصل العربي (انظر التعليق رقم: 4). وحسبنا دليلا المرجعية اللغوية لتسمية القبائل والأماكن المنتشرة في المنطقة، والشاهدة على تنوع العناصر المعمرة للمجال الريفي.

❖ **بعض صفات سكان منطقة الريف:**

تطرق الريحاني في نص رحلته إلى بعض الصفات التي كان يتحلى بها سكان الريف، فبحسب تعبيره فهم «متصفون بتوقد الذهن والنجابة (الريحاني أمين، 2018: 376). معززا حكمه هذا بقولة للخليفة السلطاني الحسن كانت مكتوبة على لوحة مدرسة سان خرخو، ومما جاء فيها: «إني آمل بل إني أتيقن أن النهضة العلمية الحقة التي ستكون أساسا متينًا للنهضة المغربية العامة، سينبعث نورها من أبناء الريف السامية أفكارهم، المتوقدة بالنجابة عقولهم» (الريحاني أمين، 2018: 376).

❖ **بعض المرافق الاجتماعية:**

لم يغفل الريحاني الحديث عن المرافق المشيدة لتلبية حاجيات سكان منطقة الريف، وفي هذا السياق أشاد بما أسماه "مشروع الجامعة الإسلامية" بمدينة مليلية، والذي سيرى النور سنة 1945م، وهي جمعية خيرية احسانية مكلفة برعاية شؤون المسلمين المقيمين بها، حيث أعدت مشروعا تعهدت فيه ببناء مسجد، وتشييد مدرسة للذكور وأخرى

للإناث، ودارا للمسنين، وأخرى للمشردين والمهمشين، كما استهدفت الجمعية النهوض بأوضاع الحرفيين والعمال وتحسين أحوالهم من خلال الدفاع عن حقوقهم ومصالحهم. وقد وصف الرحاني مقر هذه المؤسسة التي زارها بقوله «هي بناية بطابقين، وراءها حمام عام، ووراء الحمام المسجد، وفي البناية دكاكين هي وقف عليه»، مولتها سلطات الحماية الإسبانية (الريحاني أمين، 2018: 354).

❖ **المنازل:**

تعرف منطقة الريف استقرارا مهما للسكان رغم الظروف الطبيعية الصعبة، فهيمنة طابع الارتفاع الذي ينتشر على مساحة جغرافية شاسعة كان له أثر بالغ على أنماط السكن وأشكاله، والمواد المستعملة في عملية البناء، وهو ما لفت انتباه الريحاني خلال تطوفاته وتنقلاته، ذلك أن «البيوت، وهي قليلة، تراها على القمم والطلوع، لا يصل بعضها ببعض غير الطرق الجبلية، التي تبدو كالخيوط، أو كالخطوط الجغرافية، وهناك بيوتا على حرف الضلع كأنها ذباب على حد السيف» (الريحاني أمين، 2018: 383). كما وصف الطريقة التي كان يتبعها الريفيون في تشييد منازلهم، حيث كانوا يعتمدون على «الحجارة، مربعة منبسطة السطوح، إلا انها مسيجة بالصبير، وبين البيت والآخر فسحات مديدة»(الريحاني أمين، 2018: 347). مشبها تلك البيوت بالبيوت اللبنانية القديمة.

نستشف من المعطيات التي أوردها الريحاني، مدى التأثير الواضح للمعطى الطبغرافي على السكن الريفي، الذي فرض الاتجاه نحو التفرق والتشتت، حيث تشيد معظم المنازل على المرتفعات وسفوح الجبال، ويمكن تفسير ذلك بعاملين اثنين، الأول أمني دفاعي من خلال البحث

عن أماكن مرتفعة للإحتماء بها، والثاني اقتصادي اجتماعي متمثل في تخصيص الأراضي الأكثر انبساطا للأنشطة الفلاحية (الساطبي سناء، 2016: 115).

3- الجانب الاقتصادي:

❖ **الفلاحة:**

على الرغم من قساوة المجال الطبيعي لمنطقة الريف، والمتمثلة في انتشار تضاريس جبلية وعرة ذات سفوح شديدة الانحدار على نطاق واسع، إلا أنه في نفس الوقت يتيح إمكانيات مهمة لممارسة النشاط الفلاحي، وما يوفره من منتوجات غذائية متنوعة، ولو على مساحة قليلة وضيقة. وفي هذا السياق زودنا الريحاني بمعلومات مهمة حول النشاط الفلاحي بمنطقتي الريف الغربي والشرقي، فأشار إلى أن المساحة الإجمالية للأراضي الزراعية في الإيالة الغربية تقدر بحوالي أربعين ألف هكتار(الريحاني أمين، 2018: 118)، وهي مساحة مهمة بالنظر لطبيعة المنطقة التي يغلب عليها طابع الارتفاع. وتمثل الحبوب (القمح والشعير) أهم المزروعات، إضافة إلى الأشجار المثمرة البالغ عددها مليون ونصف مليون شجرة، يأتي في مقدمتها أشجار الزيتون واللوز والتين والكرم، ثم المشمش والسفرجل والرمان والبرقوق والتفاح. ولم يفت الرحاني إلى أن زراعة "الكيف" أو ما أسماه بـ"الحشيش"، كانت منتشرة في قبيلة واحدة هي بنو سدات، على مساحة سبعة هكتارات بناء على تقرير الحكومة الإسبانية الصادر سنة 1934م (الريحاني أمين، 2018: 118).

أما في الإيالة الشرقية من منطقة الريف فكانت مساحة أراضيها المنزرعة تقريبا تسعين ألف هكتار، وغراساتها تناهز مائة وعشرين ألفا (الريحاني أمين، 2018: 119)، من أشهر القرى تماسنت التي «تمتاز بعد

بساتينها الزاهرة، وسهولها الخصبة، ومياهها الجارية، ومدرستها الزراعية» (الريحاني أمين، 2018: 347).

ويمكن تفسير انتعاش القطاع الفلاحي بالريف إلى انتشار بعض السهول الخصبة قرب الساحل المتوسطي، إضافة إلى الشبكة المائية المتمثلة في وادي النكور ووادي غيس -سبقت الإشارة إليهما- والتي وفرت إمكانية السقي، من خلال بناء السواقي والقنوات لجلب المياه. ونشير إلى أن عملية توزيع المياه للري كانت تخضع لنظام النوبة، وهذا ما أكده الريحاني حينما ساق مثالا عن طريقة توزيع مياه نهر النكور، فذكر أن «أول يوم: بوعياش، ثاني يوم: بوموسى، ثالث يوم: بوعياش، رابع يوم: بوموسى وعمر، خامس يوم: آيت بوعياش، سادس يوم: أمزورن» (الريحاني أمين، 2018: 375).

❖ **الصناعة:**

كانت منطقة الريف تزخر بثروات معدنية هامة بناء على ما أثبته الريحاني في كتابه، مركزا على ثروات مدينة مليلية الواقعة في الإيالة الشرقية، والتي نعتها ب«مدينة المناجم»(الريحاني أمين، 2018: 357)، نظرا لوجود المعادن بكميات كبيرة ووفيرة وبجودة عالية، على رأسها معدني الحديد والقصدير، الأمر الذي شكل أحد أسس ازدهارها وتطورها، فاهتمت إسبانيا بتأهيل المدينة في إطار الاستغلال الاستعماري، من خلال توسيع المرفأ ومد خط السكة الحديدية، ونتيجة لذلك اتسع مجال العمارة والتجارة(الريحاني أمين، 2018: 357)، فأخذت تزداد عمرانا.

لقد استحوذت إسبانيا على ثروات المنطقة المعدنية، وعملت على تفويتها للشركات التابعة لها، وفي هذا الصدد؛ تحدث الريحاني عن

احتكار الشركة الإسبانية للمناجم الريفية حق استغلال منجم الحديد في جبل بني بويغرور والأماكن المجاورة له، مدعيا أن بوحمارة هو من أعطى امتيازا مجهول الحدود والشروط لهذه الشركة لاستغلاله (الريحاني أمين، 2018: 360). ولم تبدأ الشركة مرحلة الاستغلال إلا بعد مرور فترة زمنية طويلة، والتي امتدت من سنة 1911م إلى سنة 1931م، نتيجة الاضطرابات والثورات (الريحاني أمين، 2018: 361).

وجدير بالذكر أن عملية الاستخراج كانت تتم بدقة متناهية، حيث يتم الاعتماد على آلات قوية «تكسر يوميا من الثلاثة إلى الأربعة آلاف طن، فترسل في القنوات السفلى إلى آلات التصويل والتحليل، فيفرز منها الكبريت والإكسير، وما تبقى يحتوي على 70٪ من الحديد الأحمر *hematite*» (الريحاني أمين، 2018: 361- 362). وقدرت الكمية المحصل عليها في السنة تناهز مليون طن، كانت تشحن في سكة الحديد إلى ميناء مليلية ومنها إلى إسبانيا (الريحاني أمين، 2018: 362).

كانت الشركة تضم 700 من العمال المسلمين و100 من الإسبان، عملهم منظم بأسلوب دقيق، حيث كانت مدة العمل ثماني ساعات على مدى خمسة أيام، وكانت هناك لجنة تتكون من مغاربة وإسبان يشرفون على إدارة مخزن الشركة، وضبط مصاريفه ومداخيله السنوية، حيث يتم توزيع الأرباح على العمال بمقدار ما يكفيه لسد رمقه (الريحاني أمين، 2018: 361). وقد أشاد الريحاني بمستوى العامل المغربي وقدرته العالية على إتقان التعامل مع الآلات الميكانيكية بسرعة مذهلة. وحرصا على مصالح الشركة انفتح مسؤولوها على العمل الاجتماعي، إذ كانت تقدم خدمات اجتماعية لفائدة العمال وذويهم (الريحاني أمين، 2018: 361).

بالموازاة مع اهتمامهم بالنشاط الفلاحي، مارس الريفيون مجموعة من الصنائع على رأسها الصناعة العسلية، حيث كانت الإيالة الغربية تتوفر على ستة عشر ألفا خلية لإنتاج العسل، وهو الرقم الأعلى في الإنتاج، مقابل أربعة آلاف في حين الشرقية (الريحاني أمين، 2018: 120)، والتي كانت تدر أرباحا مهمة ومداخيل كبيرة، إضافة إلى صناعة الشموع، علاوة على عدد من الصناعات في مقدمتها صناعة البارود والأسلحة كالكلاطة (انظر التعليق رقم: 5)، وقد اشتهرت قبيلتي بنو مزدوي وتغزوت الأمازيغيتين بتلك الصناعتين (الريحاني أمين، 2018: 347).

4- الجانب الإداري:

في إطار سعيها للتحكم في منطقة الريف، أنشأت إسبانيا المندوبية السامية بتطوان كجهاز إداري مركزي يشرف عليه مندوب سامي له سلطات واسعة واختصاصات كبيرة، حيث كان ممثل الحكومة الإسبانية، يراقب أعمال الخليفة السلطاني في المنطقة الخاضعة لنفوذ دولته. ولترسيخ هيمنتها أحدثت هياكل إدارية جهوية، وفي هذا الشأن قسمت المنطقة إلى خمس إيالات: الجبلية (جبالا) حول تطوان، والغربية على البحر الأطلنتي، والغمارية في الوسط، والريفية في الريف الغربي، والشرقية أي من الناحية الشرقية من جبال الريف (الريحاني أمين، 2018: 118).

وما يهمنا هي الإيالتين الريفيتين الغربية والشرقية، فالغربية (انظر الملحق رقم 2). مرقب عام بسان خورخو، يتبعه اثنا عشر مرقبا محليا. والشرقية مرقب عام بالناضور، تتبعه ثمانية مراقب محلية (الريحاني أمين، 2018: 275). وكان المراقب العام يتمتع بكامل السلط منها، فكان

المكلف بحفظ الأمن والنظام في المنطقة الخاضعة لنفوذه وسلطته (الريحاني أمين، 2018: 277).

5- الجانب العسكري:

خضع المغرب للحماية المزدوجة الفرنسية والإسبانية، فمباشرة بعد التوقيع الرسمي على معاهدة الحماية في 30 مارس 1912م، اندلعت مقاومة وطنية مسلحة عمت مختلف مناطق المغرب، تزعمتها مجموعة من القبائل، منها قبائل الجنوب والصحراء، وقبائل الأطلس المتوسط، وقبائل الريف وجبالة، وقبائل الأطلس الكبير والصغير. وفي هذا الصدد؛ سنركز على مقاومة قبائل الريف انسجاما مع موضوع ورقتنا، والتي سلط الضوء عليها الرحالة الريحاني في كتابه المغرب الأقصى، حيث خصص جزءا لا بأس به من صفحات كتابه لرصد المقاومة الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي ضد الاحتلال الإسباني، الذي نجح في استثمار الأوضاع السياسية المتأزمة التي كانت تمر منها إسبانيا على المستوى الداخلي، جراء تداعيات الحرب العالمية الأولى، من أبرز ملامحها اضطراب سير المؤسسات الدستورية، والعجز عن تشكيل حكومة منسجمة سواء في عهد رئيس الوزراء الكونت رومانوس*Romanones*، أو في عهد السنيور داتو *Dato* الذي فشل في مسعاه القائم على التوفيق بين الأحزاب أو لتأليف كتلة من الجمهوريين كرامتها (الريحاني أمين، 2018: 162). فحرص الخطابي في أول الأمر على تنظيم القيادات العسكرية التي أطلق عليها فيما بعد "فرق الدفاع المدني"، تلاه عقد مؤتمر في بني ورياغل يوم 21 فبراير 1921م حضرته شخصيات ريفية بارزة، انتهى بانتخاب محمد بن عبد الكريم الخطابي أميرا للجهاد ضد الاحتلال الإسباني (داهش محمد، 2014: 108).

هكذا وبعد ترتيبه للبيت الداخلي، أعلن الثورة في 21 يوليوز 1921م وهي ما تعرف بـ"معركة أنوال"، حيث «أغار ببضع مئات من رجاله على مقدمة الجيش الإسباني إغارة خطيرة مبيدة؛ فذبح الريفيون بضعة آلاف من أولئك الإسبان، وشردوا الباقين وغنموا الغنائم الكثيرة» (الريحاني أمين، 2018: 162). وفي أعقاب هذا الانتصار عمت صدمة كبيرة أوساط الساسة الإسبان، وطرحت علامات استفهام كثيرة حول إخفاق الجيش الإسباني بقيادة سيلفستر، كان من نتائجها المباشرة أزمة المؤسسات التنفيذية في سنة واحدة، وهي وزارة السنيور ألنديسالازار *Allendesalazer*، ووزارة السنيور مورا *Moura*، ثم وزارة سنكيزغرا Sanchez Guerra. أفضت إلى حدوث انقلاب على الملك ألفونسو *Alfonso* بقيادة الجنرال بريمو دي ريفيرا *Primo de Rivera* يوم 13 شتنبر 1923م، الذي أرسى النظام الديكتاتوري(الريحاني أمين، 2018: 163).

وقد أرجع الوزاني السبب إلى صدور تقرير سري حرره الجنرال بيكاسو، يحمل الملك ألفونسو وقائده سلفسترمسؤولية الهزيمة النكراء (الوزاني محمد، (د.ت): 62). فقام بوضع استراتيجية قائمة على التنسيق مع القوات الفرنسية المتمركزة في المنطقة السلطانية، والتي أصبحت تنظر بعين الريبة لتمدد نفوذ الخطابي المهدد لسلطتها، وهكذا أرسلت حكومة باريس مندوبها مالفي إلى مدريد، وتم الاتفاق على تكثيف وتنسيق العمليات العسكرية ضد ما تسميهم بالمتمردين في المغرب (الريحاني أمين، 2018: 164)، تجسد على أرض الواقع من خلال وضع خطة تنص على حشد إسبانيا لقواتها عند مدينة الحسيمة، في انتظار بدء الجيش الفرنسي هجومه انطلاقا من قاعدته بمدينة تازة،

وذلك بهدف عزل المقاومين ومنعهم من تقديم الدعم والمدد لبعضهم البعض (الوزاني محمد، (د.ت): 143). وكذلك كان، حيث انتهى الهجوم باستسلام الخطابي بعد معارك عنيفة ضد الإسبان والفرنسيين سنة 1926، ونفي إلى جزيرة ريونيون *Rénion* جنوب شرق مدغشقر، وبالتالي خمدت الثورة الريفية (الريحاني أمين، 2018: 164).

وارتباطا بالأحداث السابقة، استأثرت قضية العلاقة بين الزعيمين الريسوني والخطابي اهتمام الريحاني، فخصص صفحات من كتابه لإبراز طبيعة تلك العلاقة، وفي هذا الإطار كشف أنه بعد انهزام إسبانيا في معركة أنوال الشهيرة بالريف، سعى محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى التعاون مع الريسوني، إلا أن العلاقة بينهما تميزت بنوع من الجفاء والقطيعة، وأرجع الريحاني الأمر إلى سببين: عامل نفسي حيث كان الريسوني ينظر بعين الريبة وعدم الرضا من أعمال الخطابي، وهو ما صرح به الريسوني حسب ما نقلته عنه روزيتا فوريوس (انظر التعليق رقم: 6). والسبب الثاني متمثل في دعم قبائل غمارة للخطابي، وهو ما أثار حفيظة الريسوني، الذي سعى إلى توظيف قبيلة الأخماس لضرب ذلك التعاون، وهنا أظهر الخطابي أصيل معدنه عندما تجنب الدخول في مواجهة مباشرة معه، مفضلا نهج أسلوب السياسة والكياسة في مقاومة المساعي الريسونية (الريحاني أمين، 2018: 315). وينهض قرينة على ذلك إرساله لوفد لإقناع الريسوني بالتعاون والتعاضد ضد القوات الإسبانية، إلا أن الوفد فشل في مهمته، بعدها قرر الخطابي اتباع أسلوب القوة العسكرية، التي وظفها لاستهداف معاقل الريسوني، منها محاصرة قبيلة الأخماس، ثم الهجوم على تازروت، حيث دارت معركة بين

الطرفين انتهت بانهزام قوات الريسوني، وإلقاء القبض عليه وكان «يومئذ مريضا وفي السبعين من عمره» (الريحاني أمين، 2018: 316).

خاتمة:

وصفوة القول؛ نستخلص مما سبق، أن:

- الخصوصية الطبيعية لمنطقة الريف شكلت مجالا مفتوحا، كان لها انعكاس كبير على مختلف التحولات التي عرفها الريف.
- البنية الاجتماعية لمنطقة الريف ارتكزت على أساس النظام القبلي، حيث مثلت القبيلة ثقافة وأسلوب حياة عبر التاريخ الريفي.
- الأنشطة الاقتصادية بالمنطقة هي حصيلة التفاعل بين المجال الطبيعي وبين السكان، في إطار تحقيق منافعهم المادية.
- إسبانيا أخضعت منطقة الريف لتنظيم إداري خدمة لأهدافها الاستعمارية ومشاريعها، حيث عملت على تسخير ثرواته وخيراته لتحقيق مصالحها.
- القبائل الريفية عملت على مواجهة المشاريع الاستعمارية الإسبانية في المنطقة، بالرغم من تباين الإمكانيات المادية.
- أدب الرحلة يعتبر ذخيرة مصدرية مهمة، لما يحتويه من معلومات قيمة وإشارات ثمينة، يمكن الاعتماد عليه من أجل إغناء المعرفة التاريخية.

التعليقات:

1- للمزيد من التفاصيل حول هذه الحفلات راجع: (الرافعي توفيق، 2012: ص ص 20- 63).

2- خصص الريحاني الفصل الثامن من كتابه للتعريف بالمنطقة. (الريحاني أمين، 2018: ص ص 113- 120).

3- ومما يزكي هذا الحكم الإشارات التي التقطناها نذكر منها على سبيل الاستدلال: تفضيله لنظام الحماية الإسبانية على نظام الحماية الفرنسية، وقد وجد

في المواقف المنسوبة إلى حزبين مغربيين كانا ينشطان في المنطقة الخليفية؛ هما حزبا الوحدة المغربية والإصلاح؛ خير داعم لفكرته. إشادته بالتنسيق القائم بين مؤسستين الإقامة الإسبانية والخليفية المغربية، واستشهد بنموذج مشاريع التعليم. (الريحاني أمين، 2018: 154 و174).

4- ذكر الباحث مراد جدي اعتمادا على اعتبر تقييد مخزني يعود لسنة 1890م، أن قبائل الريف كانت تتكون من 21 قبيلة، أولها من جهة الغرب متيوة، وآخرها في الجهة الشرقية كبدانة، أما الجنوب فكزناية أهل تركسيت بني مزودي وبني عمارت. (جدي مراد، 2016: 22).

5- الكلاطة: هي الإسم العام في المغرب لكل بندقية. (الريحاني أمين، 2018: 347).

6-روزيتا فوربس كاتبة إنكليزية اشتهرت برحلاتها الإفريقية والعربية، كانت قد زارت الشريف الريسوني في مقره بتزروت، ألفت كتابا تحت عنوان «سلطان الجبل»)الريحاني أمين، 2018: 287)، تطرقت فيه إلى طبيعة العلاقة التي كانت بين الخطابي والريسوني، فنقلت عن هذا الأخير قوله أن عبد الكريم الخطابي «قد تعلم في مدريد وصار مهندسا تخصص في علم المناجم، ولكنه استخدم علمه للتخريب... لما كان صبيا طلب والده مني أن أساعده ليرسل ابنه إلى مدريد يتلقى فيها العلوم ففعلت، فكان جزائي أن يعاديني عبد الكريم، ويحرض القبائل علي» (الريحاني أمين، 2018: 316).

الملاحق:

الملحق 1: صورة للرحالة اللبناني أمين الريحاني

المصدر:
الريحاني أمين، 2018: 436.

الملحق 2: خريطة الوضعية الإدارية للريف في عهد الحماية الإسبانية

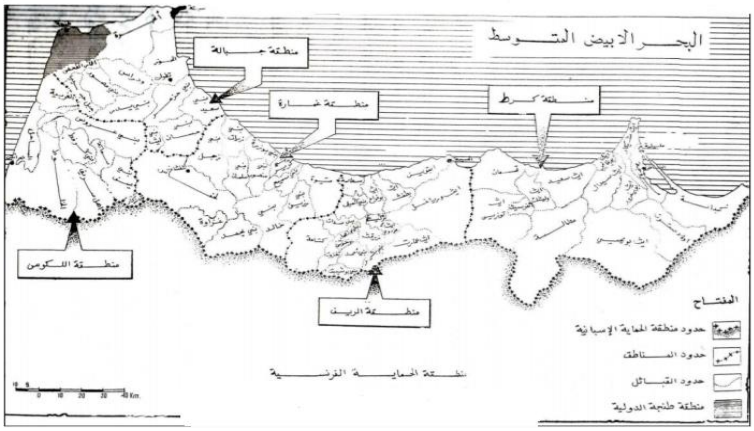

المصدر: جدي مراد، 2016: 23.

قائمة المصادر والمراجع:

1-أزيزا ميمون، (2021). **الريف زمن الحماية الإسبانية)1912- 1956): الاستعمار الهامشي**، ترجمة محمد حاتمي وعبد المجيد بنجلون، ط 1. الدار البيضاء: منشورات ملتقى الطرق.

2-برادة عبد الرحيم، (2007). **إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (1931-1956)**،د ط، ج 2، الدار البيضاء: افريقيا الشرق.

3-جدي مراد، (2016). «الريف: التسمية والهوية والعمران البشري: دراسة في تاريخ المجال والسكان 2/1)». **مجلة الذاكرة**، مركز الريف للتراث والدراسات والأبحاث، ع 1، ص.ص. 9- 24.

4-داهش محمد علي، (2014). **دراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر**، عمان: مركز الكتاب الأكاديمي.

5-الرافعي توفيق سعد، (2012). **أمين الريحاني ناشر فلسفة الشرق في بلاد الغرب**، د ط. القاهرة: مؤسسة هنداوي سي آي سي.

6-الريحاني ألبرت، (1941). **أمين الريحاني تآليفه، حياته، ومختارات من آثاره**، د ط. بيروت: مطبعة الريحاني.

7-الريحاني أمين، (2018). **المغرب الأقصى**، د ط. القاهرة: مؤسسة هنداوي سي آي سي.

8-الساطبي سناء، (1437ه/ 2966 أ/ 2016م). «المساكن والدور التقليدية في الريف الأوسط»، **مجلة تيدغين للأبحاث الأمازيغية والتنمية**، ع 5، ص.ص. 111-135.

9-الطيبي عبد الرحمان، (2008). **الريف قبل الحماية: قبائل ساحل الريف الأوسط 1860- 1912**، ط 1. الحسيمة: منشورات تيفراز.

10-فرحات نادي أسعد، (2018). **حدث في مثل هذا اليوم**، د ط، المجلد 3. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

11-كراتشوفسكي أغناطيوس، (1987). **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

12-موسى علي محمد، (1961). **أمين الريحاني**، ط 1. بيروت: منشورات دار الشرق الجديد.

13-الوزاني محمد حسن، (د.ت). **مذكرات حياة وجهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية**، ط 1، ج 2. مؤسسة محمد حسن الوزاني.